الثقافة الجامعية والمواجهة الصريحة

الأستاذ الدكتور حسين جمعة

يفترض أن يكون الوسط الجامعي المعرفي العلمي الثقافي الفكري الأدبي اللغوي الفني، النقـدي، التقني... الوسط الأمثل بالقياس إلى غيره؛ لأنه يستجيب لمتطلبات التلقي والفهـم والاسـتيعاب ثـم التحليل والإبداع محادثة وكتابة.. على اعتبار أن الجامعة حازت دون غيرها أساتذة امتلكوا عناصـر الموهبة والوعي والمعرفة والأدوات المنهجية والتقنية التي حصّلوها بإرادة وتصميم ودأب أيـاً كـان اختصاصهم، وأياً كان البلد الذي تخرجوا في جامعاته.. ثم إن مثل هؤلاء الأساتذة يملكون من الـدفع الذاتي الخصب ما يجعلهم مؤثرين في الطلبة والمجتمع على السواء...

فالجامعي– وفق ما هو مرسوم له، وكما نعرف– يُعْنَى بكل ما هو أصيل وجديد، ويكـون قـادراً على رصد التحولات المتباينة والمتوافقة في اختصاصه لكي ينقل ذلك إلى الطلبة ليـصقل مـوهبتهم وحساسيتهم ويزودهم بالمعارف العلمية والنقدية والفنية و.... فمن شروط إبـداع المبـدع أن يعـزز فـي المتلقي الرغبة في الوصول إلى الحق والخير والجمال لا أن يخلق الطلبة على مثاله؛ بل يجعلهـم يتفوقـون عليه لأنه يضعهم في مواكبة كل مستجد في الحياة، ويمنحهم أفق الرؤية في التاريخ الممتد إلـى المـستقبل الذي يؤصل تنامي القراءة وامتلاك المنهج العلمي الدقيق والمعرفة الواسعة والمتنوعـة، والقابـضة علـى ديمومة الحضور النفسي والفكري والجمالي الذي يخلق القيم الوطنية والقومية ويربي المبادئ الفاضلة فـي الذات الفردية والجمعية التي تنشأ على الذوق الحضاري في صميم الحضور الكوني الإنساني.

وهذا يعني أن الأستاذ الجامعي قادر على استشراف الرؤى في حالات الومضة السريعة، بمـا لا يمكـن لغيره أن يفعله... ومن ثم يكون قادراً على اكتشاف جوهر الفعل الخلاّق لإيجاد المشهد الثقـافي المعرفـي العلمي الأصيل في الجامعة، علماً أن الثقافة هي الفعل الأرقى للإنسان، والأداة الأفضل للتقدم والنهوض...

ولعل المتابع للمشهد العلمي الفكري الثقافي في الجامعة يدرك ــ دون مراء ــ أن الحركة العلمية والثقافية والنقدية والفنية تتنوع مساراً وشكلاً ومضموناً، وتزداد حجماً وعدداً، وفي الوقـت نفـسه يزداد عدد الأساتذة في اختصاصات شتى... فالجامعة تُرفد بأساتذة أكفياء يدخلون إليها رغبة وإرادة وجهداً في التحصيل؛ بعكس أولئك الذين سقطوا فيها طمعاً ورغبة وجاهاً و... ونحن ــ إذ نقوم بهذه المواجهة الصريحة والمكشوفة ــ لا نرغب في شن الحرب على العقل الجامعي لئلا يرتد نكوساً على نفسه، ولكننا نرغب في إثارة قضية شائكة قابلة للفحص والنظر لدى كثير من المشتغلين في الوسـط الجامعي، إذ يوجهون سهام الطعن إلى هذا الوسط زاعمين بأنه عجز عن استنهاض الـوعي وربـط الجامعة بالمجتمع... ولما كان الاختلاف يولّد المعنى والحركة الثقافية كان علينـا أن نلعـق الـصبر المعجون بالتعب والجهد لندرك التجربة الحقيقية التي ترسي عوامل الثقة والاحتـرام بـين المجتمـع والوسط الجامعي... إذ لا يزال كثير من الأساتذة يدخلون إلى طلبتهم وقد حملوا معهم ما حصّلوه في درجة الماجستير والدكتوراه دون أن يضيفوا إلى مائدة الثقافة أي لون من ألوانها الجديدة... وتراهم يكررون ذواتهم حتى ينتهي بهم المطاف إلى سن التقاعد... وعلى الرغم من ذلك نجد أحدهم يملـك

لساناً حاداً يسلق فيه الآخرين وكأنه العالِم الذي قبض على جمر الحقيقة... فأمثال هـذا العـالم هـم الذين صاروا عبئاً على الجامعة، إن لم نقل إنهم صاروا عبئاً على الوطن كلّه.

وإذا كان أحدنا مهموماً بالوسط الثقافي الجامعي فإنه يريد صادقاً وجاداً أن يطرد هاجس الخـوف والقلق نتيجة انتقال العَدْوى المرضية التي استشرت على ألسنة عدد من الأساتذة الذين أتخمت بهـم الجامعة وزادوها أزمة؛ بل إنهم ولّدوا فيها أزمات مستدامة أدَّت إلى مزيد من الألم والحـسرة حـين أوصلوا العملية العلمية إلى عتبات من الضعف والانحراف على الرغم من أننا نعيش في زمـن أكثـر رحابة في المعارف والعلوم والأدوات والتقنيات والنظريات...

وفي صميم هذا الوعي نرغب في تجاوز أفق الرؤية للواقع الذي سـقط فيـه بعـض الأسـاتذة، ولاسيما أولئك الذين أقاموا إقامة جبرية داخل أنفسهم، فلم يضيفوا إلى تجربتهم الأولى شـيئاً، علـى الرغم من أن أي تجربة تفقد معناها بتقادم الزمن، وتقع في بؤرة العتمة والظلام إن لم تتزود ببقـع الضوء المستمر الذي يجدد فيها الحياة والإنتاج والإبداع.

ولو استقصى المدقق والمتابع أبحاث بعض الأساتذة التي تصل إلى الدوريات الجامعية والمحليـة والعربية، بل الأجنبية لتيقن بأن المشهد الثقافي الجامعي قد تأطّر في عدد من الأسماء المعروفة داخل القطر وخارجه؛ بل إن عدداً غير قليل من أساتذة الجامعة داخل القطر ما زالوا يتباكون على الكلمـة المطبوعة، ويتذمرون أشدّ التذمر مما يقع بين أيديهم من أبحاث ومقالات، ومراجعات... وحين يفتش أحدنا عما يكتبون فعبثاً تكون محاولته... ولو افترضنا ــ جدلاً ــ أن الأستاذ الجامعي ــ ولاسيما من تلقى العلوم الإنسانية والآداب واللغات ــ قد امتلك أدوات البحث والكتابة، واكتنزت ذاتـه بالمعرفـة النظرية والنقدية والفنية و... لتوقَّعنا أننا سنتلقى مزيداً من الأبحاث المتميزة التي تتوخى الأنمـوذج المنهجي والمعرفي، والدقة في التحليل و... بيد أن ما يتحقق في الواقع يزيد النفس مرارة من الآراء المتطرفة لأصحاب الأوداج المنتفخة، والأفواه المريضة بالفراغ السرطاني وقد امتلأت كتاباتها بالتوصـيفات الجاهزة والمقبوسات الكثيرة البعيدة عن كل إبداع، على حين يذهب أصحابها إلى أنهم أعظم من ابن سـلام والجاحظ وابن قتيبة والجرجاني، وابن سينا والرازي، وابن رشد والفارابي، وابن حيّان والجبرتي...

ونرى أن مجلة جامعة دمشق ــ وإن كانت تعاني من أصحاب هذه الأقلام المريضة والمسدودة الأفـق، والتي تتذر في الوصول إلى قلق الكتابة الإبداعية الحرة ــ تمتلك من الوضـوح والاسـتقرار فـي الرؤيـة الدقيقة ما تمتلكه من البحث الجاد عن كل ما هو مفيد للمشهد الثقافي الجامعي، ولا تـزال مـشدودة إلـى أصحاب الذات المبدعة والمتفردة والقادرة على امتلاك النزوع الحضاري الإنساني الصانع للثقافة الخلاّقة...

وعسى أن تكون أبحاث العدد الأول لعام (2008م) محققة للرغبة المنشودة، ودافعة الأقلام الجامعية إلى الكتابة الأدبية والنقدية والفكرية والثقافية و... وقد انطلقت من بحث (المقدس والخيال الروائـي) باعتبـاره كشفاً عن آليات تعامل السرد الروائي مع المكان المقدس لمكة المكرمة. وكذا هي بقية الأبحاث التـي غلـب عليها الدراسات المتعلقة باللغة العربية وآدابها، ومنها بحث (مفارقة الخفاء والتجلي في ثنائية: أظاليل طلـح المنتهى)، وبحث (صوت التراث والهوية: دراسة في التناص الشعبي في شعر توفيق زياد)، وبحث (تعـدد الأصوات والأقنعة في الرواية العربية)، وبحث (تجليات المكان في شعر علي بن الجهم)، وغير ذلـك مـن أبحاث العدد؛ مما يجعل لب المرء متسمراً عند أيٍّ منها ليقف محللاً ومناقشاً... فكل بحث قدّم فائدة وإضافة جديدة للمعرفة... وعسى ينتفع بها القارئ الكريم.

والله من وراء القصد